المعرى الشاعر والفيلسوف

(بمناسبة مرور تسعمائة سنة على وفاته)

هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى المعرى اللغوى الشاعر الفيلسوف المعروف .

هو عربىّ النسب من قبيلة تنوخ من بطون قضاعة،من بيت علم وفضل وأدب .

وُلد فى (المعرة) وهى بلدة بالشام بالقرب من حلب فى السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هجرية ، ولما توفى النعمان بن البشير الصحابى ودفن فيها أطلق عليها اسم (معرة النعمان) .

وما كاد أبو العلاء يبلغ الثالثة من عمره حتى أصيب بالجدرى على ما هو معروف فذهب ببصره وأعماه وهو لا يزال طفلاً صغيراً .

وكان نحيف البدن ، متوسط القامة ، واسع الجبهة ، فى وجهه أثر الجدرى وقد ابيضت احدى عينيه وغارت الثانية .

قرأ النحو واللغة العربية على أبيه وغيره من أئمة اللغة فى ذلك العصر كمحمد بن عبدالله بن سعد النحوى وغيره من أصحاب الأفكار السليمة المثقفة . وكان شعلة من الذكاء الملتهب ، قوى الحافظة جداً ،حتى كان يحفظ كل مايدور حوله تمام الحفظ من أول مرة . واليك مثلا يريك كيف كان ذكاؤه وقوة ملاحظته : وهو ان تاجرين اختصما على مقربة منه وكانا يتكلمان بغير العربية ولم يعرف هو غيرها . ثم اتفقا على حساب بينهما أثبتاه فى سند حفظه صاحب الدين . ومضى على ذلك خمس وعشرون سنة مات فيها الدائن وافتقد الورثة السند فلم يجدوه وسنحت الفرصة للمدين فانكر كل ما كان بينه وبين صاحبه وانه ليس عليه شيء مطلقا !

وكان أن سمع بذلك أبو العلاء فذهب توآ الى حيث كان القضاة وألقى على مسامع

الحاضرين كل ما دار من القول بالحرف الواحد وباللهجة نفسها! فدهش القضاة وغيرهم من الحاضرين واعترف المدين بكل شيء ولم يقدر على مواجهة أبي العلاء بكلمة واحدة! فسبحان الله العظيم! وما نظن أن هناك فى بطون التاريخ من رجال وُهبوا مثل تلك الذاكرة اللهم الا قليل جداً كالامام الشافعى رضى الله عنه وأبو جعفر المنصور .

وكان المعرّى علامة عصره متضلعاً من فنون الأدب أخذ عنه الناس وسار اليه الطلبة والعلماء من كل حدب وصوب ، وكاتبه القضاة والوزراء والحكماء والأمراء حتى اشتهر فى ذلك العصر بشيخ المعرة .

قال الشعر وعمره أحد عشر عاماً ، وكان يحفظ كل ما يقوله حتى فاق شعراء زمانه فصاحة وبلاغة . ومن بليغ شعره ما حثّ فيه على طلب العلاء والبلوغ الى ذروة المجد والدعوة الى الفضائل ومكارم الأخلاق ، واليك بعض ما قاله :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعلُ عفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

أعندى وقد مارستُ كل خفية يصدق واش أو يخيب سائلُ؟!

ولما بلغ عنان الشهرة قال يمدح نفسه :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوؤها متكاملُ؟!

وقد قاسى الشدائد فى حياته من صروف الدهر وتقلبات الأيام بفقد بصره وموت أبويه وهو صغير ثم عنت المعاصرين وحسد المناظرين والمنافسين والصاقهم به تهمة الالحاد والخروج على الدين ،وقد قال فى ذلك :

تعدّ ذنوبى عند قوم كثيرة ولا ذنب لى الا العلا والفضائلُ

كأنى اذا طلت الزمان وأهله رجعت وعندى للأنام طوائلُ

وقد سافر أبو العلاء من المعرة الى بغداد فاقام بها بضع سنين وهناك التقى بمن صادقه وصافاه وهو أبو القاسم على بن الحسن التنوخى ثم ما لبث أن أعرض عنه وجافاه !

وعاد أخيراً الى المعرة ولزم داره فلم يبرح مسكنه وأطلق على نفسه (رهن المحبسين) يقصد بذلك محبس العمى ومحبس الدار !

وكان يدين بآراء الفلاسفة فى كثير من أمور حياته فلم يأكل اللحم،وكان يذهب

الى تحريم ذبح الحيوان وتعذيبه لفائدة الانسان ، كما يرى أن الوجود فى هذه الحياة تعب وشقاء ، وفى ذلك قال :

فياموتُ زُرْ ! ان الحياة ذميمة ويا نفس جدّي ! ان دهرك هازلُ

وكان شد الافتخار بنفسه . وهنا يقول :

ولما رأيتُ الجهلَ فى الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنى جاهلُ

فواعجباً كم يدّعى الفضل ناقص ! ووا أسفاً كم يظهر النقص فاضلُ !

وكيف تنام الطير فى وكناتها وقد نصبت للفرقدين الحبائلُ ؟!

وكان يعدّ التناسل جناية لأنه أصل الشرور والآفات ، ولهذا عاش أعزب ولم يتزوج فى حياته قط ، كما كان يكره وجوده فى الحياة . وقبل موته أوصى أن يكتب على قبره :

هـذا جنـاه أبى علىّ وما جنيت على أحدْ

ومن نوادره انه كان يمشى ذات يوم فى الطريق فقابله غلام صغير فاستوقفه وقال له : يا شيخ أولست القائل :

وانى وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ ؟

أجاب : نعم ! هو أنا صاحبه . فقال الغلام :

لقد وضع الأولون حروف الهجاء تسعة وعشرين فهل تستطيع أنت أن تزيدها لنا حرفاً ... ؟!

فظهرت على وجهه علامات الاعجاب وانصرف ولم يجبه .

وله مؤلفات منها :

(لزوم ما لا يلزم) و (سقط الزند) و (رسالة الغفران) .

ثم عُنى بعد ذلك بشرح دواوين بعض الشعراء ، فشرح ديوان أبى تمام وديوان البحترى وديوان المتنبى وكان يعجب بالأخير .

وقد توفى رحمه الله بالمعرة فى اليوم الثانى من ربيع الأول سنة ٤٤٩ هجرية بعد مرض ثلاثة أيام ، وكان فى السادسة والثمانين من عمره .

احمد وهبة زكريا

فرانسوى كوبيه

(بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاته)

تحتفل فرنسا فى هذه الأيام بمرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة الشاعر والقصصى العظيم فرانسوى كوبيه . وسوف تحتفل فرنسا على الدوام بذكرى كوبيه وغير كوبيه من شعرائها وكتابها الخالدين ، ففرنسا من أعظم الأمم تمجيداً لعظمائها لأن الشعب الفرنسى شعب فياض الشعور رقيق الاحساس ، وهو بذلك دقيق فى تخليد خدامه وبناة مجده خصوصاً مَن كان أقربهم الى طبيعته وأصدقهم تمثيلا لروحه .

ولقد كان فرانسوى كوبيه باريسياً صميماً جعل من المدينة العظيمة المصدر الدائم لفنه وأدبه : يجوب أرجاءها المختلفة ويدور بناظريه فى احيائها يدرس بعين الفنان البارع مظاهر السعادة والشقاء والغنى والفاقة ، ويستمتع بطبيعة باريس الساحرة ومناظرها الجميلة . ثم يعود الى منزله الوضيع وقد امتلأ قلبه الحساس بشتى العواطف المتضاربة فيسكبها فى شعره وقصصه بطريقة تسيل رقة وحناناً .. . فكوبيه من هذه الناحية يمتاز عن كثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يفهموا باريس حق الفهم ، ولم يخصصوا أدبهم لوصف مظاهر الحياة فيها من نعيم وشقاء كما فعل كوبيه. ولعل السبب فى ذلك هو أن معظم الكتاب الفرنسيين ليسوا باريسيين صميمين ككوبيه الذى وُلد ونشأ ومات فيها .

على أن هناك ناحية أخرى يمتاز بها كوبيه عن غيره من الشعراء والكتاب الفرنسيين وهوما دعا النقاد لأن يلقبوه (شاعر المساكين) ، لأن كل كتابات كوبيه تفيض بالرحمة والرثاء للفقراء والبائسين. ولقد أحسن وصفه بول بورجيه وقت ما قال عنه حين وفاته : « انك لتشعر عند قراءة مقطوعة من شعره أوقصة من قصصه انه ليس ـ كغيره من الكتاب ـ كاتباً يكتب لقراء بل صديقاً يكتب لاصدقائه ، فدقة الاحساس وطيبة القلب والأمانة الصادقة فى الوصف سواء فى شعره أو نثره والاشمئزاز الطبيعى فيه لكل تكلف أو دجل أو ادعاء هى أظهر ما يميز فنه » .

حياته

وُلد كوبيه عام ١٨٤٢ ، وكان منذ صغره معتلّ الصحة ذاوى اللون . وكان أبوه

موظفاً بسيطاً فى وزارة الحربيـة وكان مرتبـه الضئيل لا يسمح لأسرة كوبيه الا بحياة مقترة بائسة . ولما شبَّ فرانسوى أرسله والده الى المدرسة فكان يذهب اليها فى الصباح ولا يعود منها الا عنـد المساء فيـذاكر دروسـه الى جانب والديه وشقيقاته الثلاث . وعند ما بلغ الرابعة عشرة انتقلت الأسرة من منزلهـا وانتقل كوبيه الى مدرسة سانت لويس المجاورة للمنزل . ولم يكن كوبيه موفقاً فى حيـاته المدرسية ـ شأن كثير من التلاميذ الذين ينبئون بمستقبل عظيم ـ وكان دائم التفكير محباً للعزلة . وكانت حديقة لكسمبرج القريبة من منزله تفتن نفسه الشاعرة الحالمة وتلهيه بجمال مناظرها ومياهها الجارية عن متابعة دروسه .

وجاءت الظروف القاسية تترى فساعدت على هجره المدرسة ، لأن والده الذى كان قد أحيـل الى المعاش منذ عامين أصابه شلل ألزمـه الفراش مـدة طويلة وأصبحت حالة الأسرة المالية من الضيق بما لا يسمح ببقاء كوبيه فى المدرسة ، فأُخرج منها واشتغل عنـد أحـد المهندسـين المعماريين . وكان يشتغل فى الوقت نفسه نساخاً للمقاولين كى يزيد مقدار المال الذى يعين به أسرته . وكان ينتهز ساعات فراغـه ويقضيها فى القراءة المتواصلة حتى أصيبت عينـاه بمرض من جراء ذلك . ولم ينقض وقت طويل حتى عُين كوبيـه موظفاً فى وزارة الحربيـة التى كان والده موظفاً فيها ، وظل يكدّ فى سبيل أجر ضئيل تافه . وعند ما بلغ كوبيه العشرين مات والده فزادت اعباؤه وشعر بالمسؤولية تثقل كتفيه فكان يتعزى بالقراءة المستمرة وكتابة الشعر والقصص القصيرة والمسرحية . وابتدأ ينشر بعض قصصه القصيرة فى احدى المجلات الصغرى ، ولـكنها لم تـكن لها من الناحية الأدبية قيمة تذكر .

شعره وقصصه

وفى ذلك الوقت كانت قد ظهرت فى فرنسا جماعة البرناسيين فانضم كوبيه اليهـا وأصبح دائم الاجتماع بأعضائها وكانت الجماعة تجتمع يومياً عند الناشر ألفونس لومتز وكانت هذه الصداقة بين الناشر وجماعة البرناسيين مما ساعد على نشر مؤلفاتهم عنده فنشر كوبيه عام ١٨٦٦ مجموعته الشعرية الاولى (Le Reliquaire) وبعـد عام نشر مجموعته الثانية « الاخوان » (Les Intimites) وحتى ذلك الوقت لم تتعد شهرة كوبيه دائرة محدودة حتى كان يناير عام ١٨٦٩ اذ أخرجت الممثلة سارة برنار قصته « المار » LePassant على مسرح الاديون فأحرزت نجاحاً كبيراً وارتفع كوبيه مرة واحدة الى مصاف الكتاب النابغين وأصبح اسمه موضوع أحاديث الاندية الأدبية

فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية ، وأعجب به نابليون الثالث امبراطور فرنسا وعرض عليه مرتباً شهرياً ولكن كوبيه رفضه مع حاجته القصوى ، على أن حالة كوبيه المالية تحسنت قليلا بعد ذلك عند ما وُظف فى مكتبة مجلس الشيوخ .

وفى عام ١٨٧٢ كتب كوبيه قصة «حب فى أثناء الحصار» وهى أول ما كتب نثراً وكتب أيضاً مجموعة قصصه القصيرة الاول ثم ظهرت فى ذلك العام قصة «المساكين» التى بلغ فيها ذروة مجده الأدبى من الناحية الانسانية ، ثم كتب بمعاونة ارمان دارتوا قصة «حرب المائة عام» وهى مسرحية شعرية أظهر فيها نواحى من البطولة الفرنسية .

وكان اسم كوبيه فى ذلك الوقت يدوى فى كل مكان ، ففى عام ١٨٧٩ منح وسام اللجيون دونور .

وفى عام ١٨٨٣ كتب كوبيه قصة «سيفيرو توريل» فنجحت نجاحاً كبيراً ، وفى العام التالى انتخب عضواً فى الاكاديمى فرانسيز ، وفى عام ١٨٨٥ استقال كوبيه من عمله فى مكتبة مجلس الشيوخ على أثر خلاف قام بينه وبين رؤسائه الذين رأوا فى بعض أعماله الادبية من الآراء ما لا يتفق مع عمله الحكومى فسافر الى أملاك صديقه وناشر كتبه ألفونس لومتر حيث تمتع بالراحة والهدوء وكتب هناك قصة «اليعقوبيين» التى مثلت على مسرح الاديون فى شهر نوفمبر من العام نفسه .

وواصل كوبيه انتاجه الأدبى دون انقطاع فكتب عدداً كبيراً من القصص القصيرة شعراً ونثراً . وفى عام ١٨٩٥ كتب كوبيه قصته المسرحية «فى سبيل التاج» وفى عام ١٨٩٦ كتب قصة «الجانى» وهى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها .

وكان كوبيه قبل كتابته هذه القصة يعانى ألم المرض المبرح ولم ينجه منه إلا عملية جراحية خطيرة ، وجعل كوبيه من آلامه فى أثناء مرضه موضوعاً حياً لاحدى قصصه كعادته فى تصوير فواجع حياته فكتب قصة «العذاب المذب» .

وقضى كوبيه أعوامه الاخيرة يعانى آلام المرض معتزلا فى منزله الحقير مهد ذكريات حياته الأولى ، وقد أبى أن يفارقه مع الحاح أصدقائه الى أن مات فيه عام ١٩٠٨ م .

كان كوبيه شاعراً أكثر منه ناثراً ، بل ان عبقريته الشعرية — كما يقول بورجيه — كانت على حساب نبوغه كناثر ، على ان كوبيه كان واقعياً حتى فى شعره ، ولذلك كان شعره مع الموسيقى العالية التى تغمره يقرب كثيراً من النثر ، لان كوبيه لم يكن يريد

الخروج عن دائرة الحقيقة فكان يصوّر الاشخاص على ما كانوا عليه بلا تنميق ولا تزويق . وكيف يستطيع ذلك وهو فى الواقع لم يكن يكتب الا صدى شعوره الشخصى ولم تكن الاشخاص التى يصورها فى شعره أو نثره الا شخصيات اتصل بها عن قرب أو عن بعد ، ففهمها حقّ الفهم وعرف ما يخالجها من مختلف العواطف والنزعات المتضاربة ؟

ان الاتجاه الجديد الذى أوجده كوبيه فى الأدب الفرنسى عامة والشعر خاصة يبدو واضحاً فى المجموعتين الأولى والثانية من شعره : فلقد بدا فى هاتين المجموعتين شاعراً مطبوعاً يريد أن ينزل بالشعر الى رسم سواد الشعب من الطبقتين الوسطى والفقيرة . وكان يرى ان الطبقات البائسة بفقرها أو بما يعتريها من أحوال الحياة القاسية أحقّ من غيرها باهتمام الكاتب والقارىء على السواء . ولذلك كانت قطعه الشعرية فى هاتين المجموعتين صوراً صادقة بريئة لحياة هذه الطبقات . فهو لا يصور (الفقراء) فحسب بل (المساكين) عامة بمافيهم الفقراء ، لأن الذين يتألمون فى الحياة ليسوا فقراء وحدهم — وإن كان ألم الفقر والجوع هو شر الآلام — بل هناك من الناس من قد يكونون سعداء من الناحية المادية ولكن الدنيا لا تعدم من الوسائل ما تنغص بها عليهم حياتهم ، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل المرضى والخائبين فى الحب والذين فقدوا آمالهم العظيمة فى الحياة . وكذلك الأطفال الصغار فهؤلاء أيضاً يملأون جانباً من أدب كوبيه — أولئك جميعاً هم من خصص كوبيه شعره ووقته لشرح آلامهم وترى ذلك واضحاً فى قصيدة « الجدّات » وفى « قديسة » التى أهداها الى أمه . وفى قصيدة Le Banc وهى قصة حب عنيف بين جندى وخادمة ترى فيها كوبيه يبلغ الذروة من حيث دقة الوصف وصدق العاطفة ونبل القلب ، حتى ان فكتور هوجو أرسل اليه كتاباً قال فيه : « بفضلك أصبح الانسان لا يسخر من الجندى ولا من الخادمة » .

كان كوبيه يعشق باريس عشقاً جنونياً ويجد السعادة كلها فى الجلوس على شاطىء السين أو التجوال فى أحياء باريس ويسمع بأذنيه صرخات الألم والبلاء المنبعثة من بين جدران البيوت القذرة التى تكون عالماً آخر لا يتصل بباريس العابثة الماجنة بصلة . ولقد أبدع كوبيه فى رسم هذه الصورة أيما ابداع فى مجموعة الصور العشر المسماة Promenandes et Interiers :

وفى قصيدة أوليفيه Olivier تراه يصف باريس فى يوم أحد من أيام أيام الشتاء وقد تجمّع الناس وخصوصاً الفقراء فى حديقة لكسمبرج يلتمسون من جمالها وسحرها ما يخفف عن قلوبهم الكسيرة عبئها الثقيل .

وأوليفييه بطل القصيدة شاعر وزّع قلبه على كثير من النساء، وكان يشترى الحب بالمال إن أعوزه الأمر ، ولكنه فى النهاية شعر بالملل من تلك الحياة التى خسر فيها أكثر مما كسب ، فازمع الذهاب الى مسقط رأسه ليبعد عن جوّ باريس الصاخب وينزل على أحد أصدقاء والده ، وهناك يتعرف بابنة مضيفه وهى فتاة جميلة عفيفة تدعى سوزان. فتعجبه الفتاة ويبتدىء يحسّ نحوها بعاطفة خفية ، ولكنه لا يلبث يشعر بان قلبه أصبح أبعد ما يكون عن أن يتأثر بالحب العفيف الطاهر وبان الماضى الأثيم والحب الذى يشترى بالمال قد طبعا قلبه بطابع لا يمحى ، وان كل ما يشعر به نحو هذه الفتاة هو أنها تذكره بهيئتها وحركاتها بالفتاة الساقطة التى كانت تعيش معه تحت سقف باريس . وعند ما يشعر الشاعر أولفييه بان غسل الماضى فوق طاقته يتعزّى بكتابة مقطوعات شعرية آية فى الروعة ينفس فيها عن آلامه ، ثم يرحل ثانية الى باريس حزين القلب منكسر الفؤاد .

وهذه القطعة الرائعة صورة صادقة لكوبيه نفسه وهى بواقعية فكرتها وصراحة رسمها تجعلها أقرب الى (آلام فرتر) للشاعر الألمانى جوته أو الى اعترافات روسو .

وكوبيه بشعره العاطفى يسمو الى مصاف أعظم شعراء العاطفة الفرنسيين الا أن بينه وبينهم خلافاً ظاهراً : فهو ليس كموسيه مثلا الذى أمعن فى وصف الحب الشهوانى الذى يعتمد صاحبه على المكر والخديعة من أجل تحقيق أغراضه ، ولا كلامارتين الذى بالغ فى تصوير الحب الطاهر حتى خرج تصويره له أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . لقد كان كل من موسيه ولامارتين مبالغاً فى تصوير ما أراد ، أما كوبيه فقد كان وسطاً بين الاثنين : كان واقعياً صحيحاً . كان شعره رسماً لتلك الصور اليومية التى يصادفها الشاعر فى حياته ، ولتلك العواطف التى تجيش فى أعماق نفسه . ولذلك كان شعره أبعد ما يكون عن التكلف ومحاولة خلق موضوعات لا تتفق مع الحياة الواقعية . وهو بذلك كثير الشبه بالشاعر الالمانى هنرى هينى الذى يتفق معه أيضاً فى تصويره للآلام . فالاثنان تغلب عليهما ما يسمى (أنانية الفنان) : يأبى أن يشكو ما يعانيه الا بالقدر الذى يجلب عليه العطف فلا يتذلل ولا يحاول أن

يظهر أن الآلام على مرارتها قد نالت من ارادته أوعزة نفسه . وترى كوبيه يقلد هنرى هينى فى ذلك ويكتب مجموعة أغانيه المسماة L'Exilée ومجموعة صغيرة أخرى بعنوان Les Mois

ولا يبنى مجد كوبيه على شعره العاطفى، شعر الحب فحسب ، بل ان نبوغه ككاتب قصصى ومسرحى قد مهّد له السبيل لخوض غمار الشعر الحماسى والدعوة إلى مُثل عُليا فى الحياة . وهو فى هذا الضرب من الشعر نراه أقرب الشعراء إلى فكتور هوجو وفيكونت دوليل . وانك لا تلبث أن تشعر بوطنيته الملتهبة ودعوته الى أسمى الفضائل كلما قرأت له « القبران » التى يزعم فيها أن المجد الحقيقى لا يأتى الا عن طريق الفضيلة والشرف أو فى « سبيل التاج » التى يمجد فيها سيادة الأمة أو « اضراب الحدادين » التى يعيب فيها الثورات وينقد نتائجها السيئة .

ولعل من العجيب أن يبدو فرانسوى كوبيه من خلال شعره الاجتماعى والسياسى كارهاً للديموقراطية ناقداً لنظامها ، مع أنه وقف شعره ووقته القصصى والمسرحى على الدفاع عن الفقراء والبائسين ، ولكن كوبيه كان يعتقد مثل بلزاك — الذى كان كوبيه متأثراً به فى كثير من آرائه وأعماله الأدبية — انه لا بدّ من نظم ضيقة لكبح تلك الطبقة الفقيرة التى خرج هو نفسه منها . كان يمجد القوة ويعتقد بصلاحيتها . ألا تراه فى «اضراب الحدادين» ينتقد الالتجاء الى الثورات لتحقيق المطالب ؟ ألا تراه فى قصة « فى سبيل التاج » يمجد سيادة الأمة وإن كان فى ذلك تضحية للأفراد ولمصالحهم؟ وكذا فى سائر أعمال كوبيه سواء كان فى شعره أو فى قصصه المسرحية أو قصصه الطويلة أو القصيرة تراه يدعو من خلالها الى القوة والسلطان وينتقد نظام سيادة الجماهير .

لقد كان كوبيه بشعره فاتحاً جديداً فى الأدب الفرنسى فالموضوعات التى طرقها والشخصيات التى رسمها — تلك الموضوعات والشخصيات التى ولدتها انسانية حزينة — لم تكن معروفة عند الشعراء الفرنسيين الذين سبقوه .

فنه المسرحى

كانت أولى مسرحيات كوبيه قصة (المار) Le Passant وهى صرخة شباب

كوبيه : ذلك الشباب البائس المحتاج الممتلىء بالآمال الضائعة والرغبات المخنوقة . ولقد نحا كوبيه فى هذه القصة منحى الفن القصصى التصويرى الذاتى fantaisie الذى ابتدعه شكسبير فى « كما تريد As You Like It » وتأثر به موسيه فى « فيم تحلم البنات » Aqoui rèvent les jeunes filles وفى قصص « سفيرو توربلى » و« اليعقوبيين » و « فى سبيل التاج » ترى كوبيه يجمع بين المذهب الرومانتيكى والمذهب الكلاسيكى وينزع فيها منزع القدماء وأخصهم كورنيل فى أن يكون للقصة مثل أخلاقى أعلا ليجعل منها دراما أخلاقية . وهذه القصص الثلاث دعوة حارة الى تضحية كل شىء حتى العاطفة الأبوية من أجل المبادىء السامية كالحرية ومجد الوطن.

ومسرح كوبيه — كشعره — صورة كاملة لحياته الشخصية . وفى قصة Le Pater ترى شقيقة أحد القسوس الذى جرح فى أثناء الثورة الشيوعية التى قامت فى باريس بعد الحرب السبعينية ، تراها تنقذ الشخص الذى أمر باطلاق النار على الثائرين وهى تنطق بهذه العبارة : « اغفروا لنا زلاتنا كما نغفر نحن للذين أخطأوا الينا » . ولقد كانت هذه الكلمات نفسها هى آخر ما نطق به كوبيه قبل موته !

كوبيه الناثر

قلنا إن كوبيه كان شاعراً أكثر منه ناثراً ، على أن نثره مع عبقريته الشعرية وطغيانها على فنه كان يمتاز على نثر غيره من الكتاب الناثرين برقته وحرارته وبتلك الحسرة المريرة التى هى أولى خصائص أدب كوبيه . فقصته النثرية الأولى « حب فى أثناء الحصار » مع نواحى السرور والفرح التى تغمر بطليها العاشقين جابرييل وأوجينى فى مطلع القصة فانها تنتهى بصور من البغضاء والحقد يضيع فى غمرها أثر السعادة الماضية . وفى « المساكين » ترى كوبيه يبلغ الذروة فى دقة الشعور وسمو القلب والدقة الصادقة فى تصوير ضواحى باريس وفتياتها الساذجات .

وقصص كوبيه يخترقها شعاع من السخرية ، ولكنها سخرية بريئة فيها معنى العطف فهو يصف الأطفال كما يصف البسطاء من الرجال والنساء الذين يقعون فى شباك الخبثاء الماكرين . يصفهم بطريقة ساخرة فيرسم جودتهم وبساطتهم بطريقة تثير الضحك والألم فى وقت واحد ، ولكنها فى النهاية تستدر العطف عليهم والرثاء لهم .

والرذائل ... الرذائل والنقائص الأخلاقية لها من قصص كوبيه نصيب وافر . وقد

سهلت له حياته الباريسية فهم باريس فأجاد رسمها ببراعة القصصى والشاعر الفنان ، وكانت الطبقات البائسة المتألمة هى الغالبة فى جميع قصصه . وفى قصته « الاغنياء الحقيقيون » Vrais Riches ترى لونا من الصوفية يشعّ من أدب كوبيه ففى هذه القصة تراه يؤمن بالمثل القائل : (المال لا يجلب السعادة) فالأغنياء الحقيقيون فى نظره هم أولئك الذين يحتفظون فى أجسامهم بالكنز الذى لا يفنى ، ألا وهو القلب .

وقصة « الجانى » Le Coupable وهى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها تعتبر من أروع أعماله ، وهى قصة أب هجر ابنه وهو ثمرة علاقة بينه وبين فتاة عاملة حين كان طالباً فيندفع الولد الشريد الى الرذيلة ويصل به الأمر الى ارتكاب الجرائم . ثم ينتهى به الحال الى الوقوف أمام المحكمة التى يكون أبوه قاضياً فيها ، فيعترف الأب علناً بانه هو الذى جنى على ولده . والقصة كتبت باسلوب دامع وبطريقة لا يملك القارىء لها نفسه من البكاء والثورة على تلك المآسى التى تحدث فى كل زمان ومكان .

لقد كان فرانسوى كوبيه فاتح الطريق لأدب جديد : أدب الرحمة الواسعة والعطف الصادق على كل متألم بائس فى الحياة ، ولقد صدق أناتول فرانس حين قال عنه : « اذا كانت الثقافة المتوسطة تكفى لفهمه فانه لا بدّ لتذوقه تماماً من ذهن صادق نقى » .

على كامل

غادة الحيط

(موسيقىّ أخفق فى حبّه ونبا به دهره يسير على شاطىء الحيط ، ثم يجلس على صخرة مشرفة على أمواجه التى تشبه الجبال ويمسك عوده وينشى)

كوكبٌ قد لاحْ ينشدُ الاصباحْ
ونسيم هبّ مثل عطرٍ فاحْ